

لعل كل متتبع للشعر المعاصر يتذكر تلك الهتافة المتحشجة الخصبية التي أرسلها أبو القاسم الشابي وهو ينازع في أيام احتضاره الأخيرة :

# السفر والموت

بقلم الأناثة نازك الملوكة

يرى في الموت « ذوباناً في فجر الجمال » .  
ان مظاهر عشق الشابي للموت تنتشر عبر شعره ، ... هاك مثلاً هذه اللوحة الباذخة التي يرسمها لموته في قصيدة « النبي المجهول » :

جف سحر الحياة يا قلبي الباكي  
فهيّا نجرب الموت هيّا

ثم تحت الصور الناضر الخلو تخطّ السبول حفرة رمسي وتظل الطيور تلغو على قبوري ويشدو النسيم فوقي همس وتظل الفصول تمشي حواليّ كما كنت في غضارة أمس في هذه الابيات تخلو تجربة الموت من المرارة الرهيبة ، فالشابي يذكرها في هدوء حالم ، وكأنها ستقوده الى عوالم خفية مسحورة يشاق الى ان يجوبها . وهذا عين ما نستطيع استخلاصه من القصيدة المشهورة « الصباح الجديد » ، فالابيات الاخيرة فيها تذكرونا بجملة الفرح التي تنبثق في قلب غلام حالم يعبد البحر ، وقد أتبع له اخيراً ان يبحر في سفينة شراعية بيضاء ذات صباح دافئ ربيعيّ الشمس .

فهذا بيت يلفت النظر بما يتخذه من موقف تجاه الموت يخالف الموقف المعتاد للمحتضرين ، فهو بدلاً من ان يعرض استسلام الشاعر لهذا الفناء الذي لا بد منه ، يصوره لنا وكأنه يقبل عليه باختياره في لهفة وشوق . ولفظة « نجرب » عميقة الدلالة هنا لما تتضمنه من إيجابية وقوة ، وذلك لأن التجربة فعالية إرادية يقوم بها الانسان واعياً ، وهي بهذا تختلف اختلافاً جوهرياً عن الموت الذي هو استسلام سالب لا مفرّ منه لعوامل الانحلال والسكون . فاذا كان أبو القاسم قد سمى رحلته الى هذا العالم « تجربة » ، فهو إنما يضع ايدينا بهذه اللفظة على موقفه من الموت وبالتالي على موقفه من الحياة .

هذا الموقع الذي يقفه شاعرنا من الموت يعيد الى الذاكرة موقف الشاعر الانكليزي العذب جون كيتس (John Keats) الذي يمكن ان نسميه شاعر الموت المفتون الاكبر . فهو يقول في احدي قصائده : « الشعر والمجد والجمال اشياء عميقة حقاً . ولكن الموت اعظم . الموت مكافأة الحياة الكبرى . » ويهتف في قصيدة مشهورة : « كنت نصف عاشق للموت المريح ، وناديت باسماء عذبة في اناشيد عديدة . » ثم يضيف بيتين : « الآن اكثر من اي وقت آخر ، يبدو لي ان من الحسوبة ان اموت . » ويدل كيتس على جنونه بالموت حتى دون ان يتحدث عنه مباشرة ويكفي ان نشير مثلاً الى قوله في احدي مطولاته : « كان هناك موت حيّ في كل انبجاسة من النغم . » ذلك انه يصف هنا الحياة بالموت دون ان يلوح له هذا متناقضاً على الاطلاق . والحق اننا نشعر ان الالفاظ « اموت . موت . ميت . » كانت تسكر حس كيتس وتبدو له متفجرة بالجمال كما يلوح من هذه العبارات التي نقتطفها من قصائده :

وقد كانت تجربة الموت تملك بالنسبة للشابي كل ما تملكه التجارب الحيوية من متعة مبهمة وغموض مفر ، وفي وسعنا ان نتثبت من هذا بمراجعة قصائده حيث نجده يذكر الموت عندما يتحدث عن الجمال والحياة والشباب والأمل والربيع . ونموذج هذا قوله في قصيدة « تحت الغصون » :

فلمن كنت تنشدين ؟ فقالت : للضياء البنفسجي الحزين للشباب السكران ، للأمل المعبود ، لليأس ، للأسى ، للمنون فقد جمع في البيت الثاني الشباب والأمل والبأس والأسى و ( الموت ) في سياق واحد ، هو سياق الفناء والسكر بالحياة الكاملة التي لا يتم جمالها في نظر الشابي إلا باجتاع الفرح والألم والحركة والسكون فيها . وهذا هو التفسير لما قد يلوح غريباً من ان الشاعر يجعل حبيبته تذكر الموت في اللحظة التي اكتملت فيها سعادتها ، ذلك انه كان يؤمن بان الحياة العميقة الكاملة لا تصل قمتها من الادراك والوعي حتى تندغم بالموت ، وتفهمه فهماً جمالياً خالصاً . وقد كان جزء من جمال حبيبته انها تشاركه هذا الايمان ، كما كان الاعتقاد عينه هو الذي قوّى ( بروميثيوس ) على احتمال آلامه الجسمية الرهيبة ، ولذلك جعله الشاعر

« قال هذا وخطا بحفة ، في لون من المرح المملوء بالموت »  
« إنها تعيش مع الجمال ، الجمال الذي يجب ان يموت »

« الى بعض الأرواح المنفردة التي استطاعت ان تبعث  
شبابها في الغناء وقوت » .

وثمة شاعر ثالث وقف الموقف عينه من الموت ، هو محمد  
المشمريّ ( ذلك الشاعر الموهوب الذي كان موته خسارة  
شعرية كبيرة رزىء بها الأدب العربي الحديث ) . إن إحساس  
هذا الشاعر بالموت أكثر تميزاً منه عند الشابي مثلاً ، حتى يكاد  
يقرب من كيتس ، وكان أي حادث يرتبط بإحساسه لا بد  
ان يذكره بالموت ، وهكذا نجد ان سعادته بالرجوع الى قريته  
في قصيدة « العودة » تعيد الى ذهنه ذكرى القمة العليا للحياة  
التي يبلغها الانسان بالموت :

أموت قير العين فيك منعماً      يحدوني نفع من المرج عاطر  
ويلحفني هذا البنفسج ولتكن      مسارح عينيّ الربى والمحاضر  
وآخر ما أصغي اليه من الصدى      خيريك يفنى وهو في الموت سائر  
ولعل هذه الأبيات تذكرنا باللوحة الجميلة التي رسمها ابو  
القاسم لقبره ، فهنا نجد العطر والبنفسج وخرير الماء وشاعراً  
يموت سكران بالجمال ، مخدراً بالعبير . هذه العذوبة التي يجدها  
الشاعر في تذكر ساعة الموت تعيد الى الذاكرة قول كيتس  
في إحدى رسائله الى صديقه «فاني» : « هناك أمران خصبنا بالجمال  
أحلم بهما : حبك وساعة موتي . » والمشمري لا يقلّ عن  
كيتس توهلاً بالفناء ، حتى انه كتب ملحمة كاملة سماها ( شاطئ  
الأعراف ) وتحدث فيها عن رحلته الأولى بعد الموت نحو  
الحياة الأخرى . والقصيدة تكاد تكون أغنية حب موجهة الى  
الموت لا أثر فيها للحسرة ولا للذكرى ، وكان الشاعر يلتذ  
بكل لحظة من لحظات موته إن صح التعبير .

اما الشاعر الانكليزي روبرت بروك ( Rupert Brooke )  
الذي مات قتيلاً في الحرب العظمى ، فان حبه للموت لم يكن  
حبّ عشق كحب الشابي وكيتس والمشمري ، وإنما كان حب  
صداقة ، فكان خالياً من تلك الحدة الحسية التي لمسناها في شعر  
زملائه وسبب هذا في رأينا ان بروك لا يرى في الموت غرابة  
تجعله يبالغ في حبه فهو شيء اعتيادي له ما للحياة من جمال وفيه  
ما فيها من إزعاج لا أكثر .

وقد ترك هذا الموقف اثره في شعر بروك الذي يتجه اتجاهاً  
يختلف عن اتجاهات الثلاثة الآخرين . فهو مثلاً يتحدث في  
أحدى قصائده عن « شاعر » ميّت لقي حبيبته في جهنم ، فراحا  
يركضان عبر شوارع الجحيم سروراً باللقاء ... ثم اكتشف  
فجأة ان عينيها فارغتان ، وأحس مكان شفيتها القديمتين برودة

ثلجية . وأدرك أخيراً انها ميتان كلاهما . وفي هدوء تام يتخيل  
بروك في قصيدة أخرى موت حبيبته والطقوس الرومانية التي  
ستقيمها أسرته عند دفنها . ولا بد لنا ان ننبه هنا الى ان هذا  
الموقف يخلو كلياً من رغبة الأيذاء التي تدفع أحياناً بإنسان  
مهجور الى ان يتخيل موت هاجره تشقيماً أو إغاظه ، فبروك  
يصف موت الفتاة لمجرد اللذة التي يجدها في وصف الحادث بصفته  
الانسانية . والموت عنده حدث اعتيادي لا يستدعي الجنون ،  
وهذا أمر يجعل استعماله للانتقام والتشفي ضرباً من العبث  
المستحيل . وفي قصيدة ثالثة يتخيل بروك انه قد مات ، ولا  
يصحب تخيله هذا أي حزن ، وإنما مقصد القصيدة ان تصف  
رعشة مفاجئة تسري بين زملاء الموتى ويدرك الشاعر منها ان  
حبيبته قد ماتت ووافت عالم العدم .

ألا يبدو من هذا كله ان الموت عند بروك يتجرد من  
فكرته المحزنة المخيفة تجرداً كاملاً فلا تبقى منه إلا الحقيقة العارية؟  
وهذا يجعل موقفه منه مختلفاً عن الموقف المألوف بين الناس .  
فهؤلاء يجعلونه خاتمة ، بينما يراه بروك في أكثر الاحيان بداية  
فنية لامكانيات متعددة . وهذا يعيد الى ذاكرتنا قصيدة  
كيتس الفذّة هايبيرون ( Hyperion ) وفيها نجد ( ابولو )  
الاله الجديد لا يبلغ مرتبة الألوهة إلا بعد ان يموت ( die into life )  
وهذا يكون الموت خطوة نحو الحياة الكبرى .

★

بعد هذا الاستعراض السريع لمظاهر الوله بالموت في شعر  
المشمري والشابي وكيتس وبروك ... سنحاول ان نتساءل  
عن العلاقة الممكنة بين هذا الوله الغريب بالموت ، والوفاة  
المبكرة التي اردت الشعراء المذكورين وهم في غضارة الشباب قبل  
الثلاثين . وربما كان ممكناً ان يكمن بعض السر - في حالة  
كيتس والشابي - في مرض السلّ الذي ماتا به في سن السادسة  
والعشرين ، فالمعروف ان هذا داء عاطفيّ تصحبه اعراض من  
الحساسية والعذوبة وحدة الانفعال . غير ان المشمري وبروك  
قد ماتا فجأة لاسباب عارضة ، فتوفي الاول في عملية جراحية  
بسيطة احسبها الزائدة الدودية ، ومات الثاني قتيلاً خلال الحرب ،  
وهذا يبعد ان يكون المرض هو السبب في حب الموت . فبماذا  
نعلم هذه الظاهرة الغريبة ؟ ولم كان هذا الحب الحصب للموت  
عند شعراء ماتوا في ريعان شبابهم ؟ اكان الغرام بالموت يتصل  
بالوفاة المبكرة عن طريق الانحاء على وجه ما ؟ ام كان نتيجة  
لادراك غامض للموت المبكر الذي ينتظر في زاوية من زوايا

وهذا يخالف الموقف الشائع الذي لا يرى في العواطف إلا عرساً يصاحب الاحداث ويستحسن الانسان المتوسط ان يتجنبه جهد الامكان . ويكفي ، لسكي نشير الى المكنة العميقة التي يحتلها الانفعال من حياة كيتس ان نقطف بيتين رائعين وردا في قصيدته انديميون ( Endymion ) قال : « أواه ، هل وجد قط ذلك الانسان المنفرد الذي أحب ولم تقتله الموسيقى ؟ » ان المضمون الفكري الذي تنطوي عليه هذه الصرخة العاطفية الغنية بالمعاني هو ان اجتماع الافراد والحب والموسيقى في حياة أي انسان كفيف بأن يثير انفعاله الى درجة قاتلة . غير ان كيتس كان يتحدث عن نفسه ، وقد كان يدرك في مرارة ان الموسيقى لم تقتل من الناس كثيرين غيره .

والحق ان كيتس قد كان يملك قدرة خارقة على الانفعال يندر مثلها حتى بين الشعراء والفنانين الكبار ، وكأنه كان متجهاً بكيانه كله الى ان يجتوق ليكون شاعراً عظيماً . ان الفاظه تنبجس بالعواطف الغزيرة والاحساسات الحادة حتى يسكاد القاريء المرفه المتذوق لا يقوى على ان يقرأ كثيراً من شعره في جلسة واحدة . وقد عالج كيتس قضية الانفعال في اساليب مختلفة في شعره ، على نطاق عام حيناً ، تفصيلي حيناً آخر . واول ما يلتفت نظرنا ان شخصياته في القصائد القصصية كانت كلها شخصيات مرهفة شديدة الحساسية تذهب في القدرة على الانفعال المركز الى حدود بعيدة تكاد تصبح شاذة . وهكذا نجد ان ( بورفيرو ) و ( مادلين ) و ( لاميا ) و ( ليسبوس ) و ( انديميون ) و ( سينثيا ) و ( ساترن ) وغيرهم كانوا كلهم متوحشين في حبهم وكرههم وسخطهم ورضاهم ، ولما كانوا يعرفون الوسط . انهم اناس يعيشون بعواطفهم وبأكون قلوبهم . وهكذا نجد انديميون ( Endymion ) - في القصيدة الوحشية الجمال التي تحمل اسمه - يغم بسينثيا ( Cynthia ) غراماً عاصفاً لا مثيل له ويتروك قلبه نهباً لكل جمال يحيط به مها صغر ، حتى يكاد يتعذب بحبه لاشياء مثل الفراشات وزنابق الماء وضربات قاطع الاخشاب في غابات ( لاموس ) . اما قصيدة لاميا ( Lamia ) فهي تنتهي بمعانها اللاشعورية المكتنزة الى ان التفكير يقضي على الحياة عندما يحاول ان يقتل العاطفة : لقد كانت ( لاميا ) أفعى تحولت الى فتاة جميلة بقدرة سحرية ، غير انها كانت مخلصه في حبها للطالب ( ليسبوس ) عاشق الشعر والفلسفة ، فبنت له قصرآ مسجوراً جدرانها من الموسيقى . وفي يوم الزواج ، خلال دعوة صاحبة بالخطر والموسيقى والالوان ،

لكي نصل الى اجوبة هذه الاسئلة ، سنلاحظ اولاً ان بين الشعراء الاربعة صفة مشتركة يملكونها جميعاً على شيء من التفاوت هي حدة الاحساس او القدرة على الانفعال العنيف . وهذه صفة لا يملكها المتوسطون من الناس ، ولعل هذا من حسن حظ الانسانية ، فالانفعال كما سنرى اسراف في الطاقة لا ترضاه الطبيعة . والحق ان الطبيعة تبغض الاسراف في الجهات كلها ، وتعمل جاهدة على رد الحياة البشرية الى الاعتدال الذي يضمن لها البقاء .

ومن السهل ان نمثل لهذا الاسراف في الانفعال بالاشارة الى قصيدة « العاشق الاكبر » ( The Great Lover ) لبروك ، وقد عدت فيها الاشياء التي احبها حباً شديداً على كثرتها ، وسنعجب حين نجدها تشمل الصحون البيضاء والاكواب ، والغبار ، والسطوح المبللة تحت ضوء الطريق ، واقواس قزح ، ودخان الحشب المحترق ، وقطرات المطر المختبئة في الازهار الدافئة ، ونعومة الاغطية ، وخشونة الشفوف ، والغيوم ، والجمال اللاعاطفي الذي تملكه آلة ضخمة ، ورائحة الثياب القديمة ، والألم الجسمي وهو يتحول الى الهدوء ، والنوم ، والاماكن العالية ، وأشجار البلوط ، وأشياء أخرى كثيرة غير هذه . وهي أشياء منحها الشاعر كثيراً من الانفعال الذي يجتونه سواه من الناس للأحداث الكبيرة في الحياة . فالانسان المتوسط يدرك في اعماقه ان هذا التبذير في الاحساس مضرٌ بحياته ، ومن ثم يتعد عنه ويجرص على الاقتصاد في العاطفة .

وفي حالة المشرى تجهبنا الحدة العاطفية في تلك الصلاة المتهبة التي ارسلها الى « چتا الفاتنة » في عالمها اللامنتور ، وتلوح لنا في وضوح ونحن نقرأ قصيدته البدعية في « النارنجة الذابلة » . وكلا « چتا » و « النارنجة » رمالٌ منهارة لا يقيم عليها الانسان المتوسط الحكم سعادته ، فالأولى وهمٌ مطلق والثانية مجرد نارنجة فانية .

وقد كانت انفعالية الشابي أكثر اتساعاً من انفعالية المشرى حتى كادت العواطف تصبح عنده مرضاً ناهشاً ، فعاش الشاعر يلهث وأنعبه الشعر حتى قتله . ان الشعر قد كان هو السل الأكبر في حياة هذا الشاعر المشتعل ، ومن اجله عاش يتعذب بكل جمال يمر به ، وإن كان عذابه لذيذاً .

أما كيتس فنحن نحتاج الى ان نقف عنده وقفة أطول ، فقد كان الانفعال بالنسبة اليه هو الموضوع وهو غاية الحياة كلها .

# شخص ثالث

أرأيتيه؟

أرأيت شاطيءَ صمته؟

يبدو هناك وينتهي .

بالأمس كان هنا معي

يصغي إليّ ولا يعي

وبموته

ما عاد يطرق مسميّ وأضلي

شيء ينام بموضع

★

ومضى الربيعُ فجمتته

تتذرعين بصمته

وهناك فوق المضجع

شيء يلفّكما معي

المستحيلُ ، ومبضع

لمّا يزلُ في أضلي

بغداد صفاء الحيدري

والشعر والموت . فالشاعر يجب الانفعال لأنه يؤدي الى الشعر . على انه يلاحظ ان الانفعال هو الموت لأن الاول طريق محتّم الى الثاني ، .. ومن ثمّ تبدأ مرحلة من الغرام بالموت نفسه تقابل الغرام بالشعر حتى تصبح الالفاظ الثلاثة في معنى واحد . إنها مرحلة يندغم فيها الطريق بالغاية التي ينتهي اليها في وحدة متينة لانقسام لها . وربما كان رأينا هذا محض «جولة» جنباً فيها جهة وحشية من جهات التعليل الادبي . ولعل الموضوع يحتاج الى ان نواجهه مرة اخرى ...

بغداد فازك الملائكة

يبدخل ( ابولونيوس ) استاذ الفلسفة فيجدّد في (لاميا) تحديقة ثابتة طويلة تكشف عن حقيقتها الخيالية وتهدم الجدران الموسيقية للمنزل ، واذ ذاك تصرخ (لاميا) وتتلاشى . والى هنا يكون الموقف غير غريب بالنسبة للقارئ ، فماذا في ان يهدم الواقع الملموس خيالاتٍ من هذا النوع ؟ غير ان النتيجة التي انتهى اليها ( ليسبوس ) هي الموضوع الهام بالنسبة لكيتس . ذلك ان ( ليسبوس ) قد مات حالاً عندما فقد حبيبته المسجورة ، وسدّى حاول ( ابولونيوس ) إنقاذه . وقد كان هذا هو سرّ كيتس ايضاً ..

★

هذه المبالغة في بذل القوى النفسية لا بد ان تؤدي بالشاعر الى ان « يستنفد » قواه الروحية والشعورية في بضعة سنين ، ثم يقف لاهثاً فجأة ويضطر الى ان يموت . فالانفعالية تشبه الاحتراق ، لانها تجعل الشاعر ضعيفاً تجاه مظاهر الحياة المحيطة به ، فكل جمال يعصف بقلبه ، وكل انساق يملأ مشاعره بالحماسة الطافحة ، وهذه حالة تصبح فيها قيمة الاشياء المحيطة بالشاعر أغلى من حياته نفسها .

وهكذا كان الانفعال اول طريق الى الموت في حياة هؤلاء الشعراء ، لأن رصيد الانسان من الطاقة العاطفية محدود بحيث إذا بالغ في صرفه انتهى الى « افلاس » انفعالي مبكر . وهذا الافلاس هو الباب المؤدي الى الموت . ولنتخيل كيتس أو الشابي من دون انفعال . انها ولا شك يموتان ...

ولعل هذه الحقيقة تبيح لنا ان نعتقد ان هذا الولوج الذي صبه شعراؤنا على الموت كان يتضمن إدراكاً باطنياً سابقاً للخاتمة المبكرة ، تسوقهم اليه ملاحظتهم الحفوية لانعدام التوازن بين المبدول من طاقتهم العاطفية والرصيد الكامل منها في كل حياة انسانية . وكأن الواحد منهم كان يشعر بأنه يقتل نفسه شيئاً فشيئاً حينما يسرف في طاقة الانفعال .

ولاشك في ان هذا يولوج حماقة للمتوسطين من الناس وهم اغلبية البشر . غير ان منطق العبقرية إجمالاً ينسجم مع ما سمّاه ( نيتشه ) بالرغبة في الفناء للتفوق على الذات . وهي رغبة غير واعية لا يد للشاعر الانفعالي فيها ، فهو بطبعه مسرف ، وإن أدى الاسراف الى موته ، لا بل إنه يسرف لكي يموت . وهو يمنح الأشياء كلها قيماً جمالية أعلى من القيم التي يمنحها إياها الفرد العادي ، ويؤدي هذا « المنح » الى الموت . ومن ثم يتكون في حياة الشاعر الانفعالي مثلث من القيم زواياه الثلاث هي الانفعال